الفصل الخامس

علم الشافعى باللغة وآدابها

اللغة العربية هى لغة القرآن الكريم. ولقد حافظ عليها المتكلمون بها قديما وحديثا وهى لغة ثرية تجدد نفسها بنفسها ولقد أثراها القرآن الكريم وأضاف إليها ما جددها وما خلصها من بعض اللكنات الشاذة وجدد فى ألفاظها فمحا منها ما كان غريبا على اللسان العربى وعلى العرف والتقاليد والآداب. وهذا هو سر خلودها وبقائها.

ولقد أبرز الله من بين علماء الأمة من قاموا بتدوينها ووضع أصولها وقواعدها وبيان علومها وآدابها ولكل فرع من فروعها علماؤه وطلابه بعد أن كانت تؤخذ بالسماع فى جاهليتها وبعد ظهور الإسلام ونزول القرآن تكونت اللغة مما يلى:

- النحو.
- الصرف.
- البلاغة.
- الأدب والنقد.
- فقه اللغة.
- متن اللغة.

وقد أنشئت المدارس والمعاهد على مدى تاريخ الإسلام التى تقوم بتعليم اللغة وآدابها. وصنفت الكتب المتعددة فى علوم اللغة وآدابها.

وما زالت اللغة العربية فى حيويتها وعظمتها بتراثها الضخم فى بلاد المسلمين. مما جعل الغرب والشرق يوافقون على اعتبارها لغة تخاطب عالمية فى الأمم المتحدة أعلم: أن المتقدمين من أئمة اللغة والمتأخرين منهم. أعترفوا للشافعى بالتقدم فى علم اللغة وأقروا له بكمال الفصاحة.

نقل عن الأصمعى أنه قال: قرأت ديوان الهذليين على شاب من شباب قريش يقال له: محمد بن إدريس الشافعى – رضى الله عنه –.

وحكى ابن دريد عن أبى حاتم السجستانى عن الأصمعى أنه قال: قرأت شعر الشنفرى على محمد بن إدريس الشافعى – رضى الله عنه –.

وحكى المبرد عن المازنى أنه كان يقول: قول محمد بن إدريس الشافعى – رضى الله عنه – حجة فى اللغة.

وكان الجاحظ يقول: نظرت فى كتب هؤلاء النابغة. الذين نبغوا فى العلم فلم أر أحسن تأليفا من المطلبى – الشافعى – كان لسانه ينظم الدر.

وروى غلام ثعلب قال: سمعت أبا العباس: ثعلبا يقول: العجب أن بعض الناس يأخذون اللغة على الشافعى وهو من بيت اللغة فالشافعى يجب أن تؤخذ منه اللغة لا أن تؤخذ عليه اللغة (١).

قال الفخر الرازى رحمه الله تعالى: مما يدل على قوة الشافعى فى علم اللغة: أن الإمام أبا منصور الأزهرى – ولا شك أنه كان من عظماء العلماء فى علوم العربية – قد اعترف للشافعى رضى الله عنه بالكمال والتمام فى هذا العلم. وصنف كتابا فى شرح مشكلات ألفاظه وذكر فى صدر ذلك الكتاب ثناء عظيما ومدحا عاليا للشافعى.

وأما الإمام أبو سليمان الخطابى. فإنه كان فى النهاية القصوى فى علم اللغة وفى الحديث. وهو كان من أصحاب الشافعى ومن المعترفين بتقدمه فى علم العربية.

وأجمع أهل خراسان على أنه ما كان بخراسان أبرع فى اللغة والنحو من أبى الحسن على بن القاسم الخوافى صاحب كتاب «مختصر العين فى اللغة والنحو» وهو كان قد افتخر فى أشعاره بالشافعى فقال:

تلقيت دينى عن قريش وهاشم ومن بيته كان الحطيم وزمزما

---

(١) مناقب الشافعى للبيهقى والرازى.

ففزت بدين الهاشمى محمد وبالعروة الوثقى التى لن تفصما

أدين بدين الشافعى وهديه وأبرأ إلى الرحمن ممن تهجما

وأما أبو عبد الله: ابراهيم بن محمد بن عرفه النحوى الأزدى: نفطويه فله كتاب معروف فى مناقب الشافعى يذكر فيه ألفاظه الفصيحة.

وأما أبو القاسم: محمود بن عمر الزمخشرى (صاحب الكشاف فى التفسير) ولا نزاع أنه كان فى درجة عالية وأبهة عظيمة فى علم العربية - ولا نزاع أنه كان فى درجة عانية وأبهة عظيمة فى علم العربية - فإنه اعترف فى «الكشاف» للشافعى بالتقدم فى علم العربية.

ثم قال: وكان محمد ابن بنت الشافعى يقول:

أقام الشافعى على تعلم العربية وأيام الناس عشرين سنة. وقال: ما به إلا الاستعانة على الفقه.

وكان الشافعى يقول: أصحاب العربية جن الإنس. يبصرون مالا يبصره غيرهم.

وكان أحمد بن حنبل يقول: «الشافعى فيلسوف فى أربعة أشياء: فى اللغة وأيام الناس والمعانى والفقه».

وقال أيضا الرازى: واعلم أنه نقل عن الشافعى أنهم سألوه عن بعض المسائل بألفاظ غريبة فأجاب عنها فى الحال [1] .أ. هـ.

لقد شهد له علماء اللغة والدين بعلمه بعلوم العربية وتفوقه فيها على أقرانه ويرجع ذلك إلى سببين رئيسيين هما:

أولا: كونه مطلبى قرشى وبلغة قومه نزل القرآن الكريم.

وثانيا: لقد دفعت به أمه رحمها الله تعالى إلى البادية ليحفظ اللغة ويحافظ عليها فيقوى لسانه ويجمع أشعار البادية ويحفظها. وقد كان له ما أرادت أمه رضى الله عنها. فحفظ شعر هذيل وغيرها.

---

(١) مناقب الإمام الشافعى للرازى بتصرف ص ٢١٥ - ٢٣٩.

يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه :

ولولا ان الشعر بالعلماء يزرى ... لكنت اليوم أشعر من لبيد
وأشجع فى الوغى من كل ليث ... وآل مهلب وآل يزيد
ولولا خشية الرحمن ربى ... جعلت الناس كلهم عبيدى

● **نماذج من شعره ونثره :**

روى البخارى عن أبى بن كعب رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة) .

إن نظم الشعر وإنشاءه لا بأس به شريطة أن لا يتعارض مع مبادئ الدين وقيمه وأن لا يكون قبيحا فحسنه حسن وقبيحه قبيح لذا روى أن النبى ﷺ استنشد من شعر أمية بن أبى الصلت مائة بيت . وقال (إن كاد ليسلم) .

واستنشد من أبى بكر – رضى الله عنه شعر قس بن ساعدة :

فى الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ... ليس لها مصادر

وذكر الإمام الشافعى ضى الله عنه من أن (الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح) وكان من معجزات النبى ﷺ انه لم ينظم الشعر ولم يخط بيمينه ﷺ قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : لا يكاد يجود شعر القرشى وذلك لأن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ** ﴾ [يس : ٦٩] .

ولا يكاد يجود خط القرشى لأن النبى ﷺ ما كان يكتب بدليل قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ [العنكبوت : ٤٨] .

لقد كان الإمام الشافعى رضى الله عنه شاعرا فحلا ولكنه لم يسترسل فى الشعر لانشغاله الدائم بالكتاب والسنة والفقه والتشريع والمساجلات والمناظرات مع العلماء من هنا أو من هناك كما أنه كان يرى فى قرض الشعر للعالم مضيعة

لوقته ونقيصة فى حقه ولم يؤثر عنه من الشعر إلا ما نظمه فى الدين والفضائل والنطق بالحكمة وقول الحق ولم يكن للشعر أغراض أخرى – كسائر الشعراء – عند الإمام الشافعى رضى الله عنه وإليك نماذج من شعره تدل على شاعريته وصدق أحاسيسه رضى الله عنه قال:

ومنزلة السفيه من الفقيه ... كمنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد فى علم هذا ... وهذا أزهد منه فيه
إذا غلب الشقاء على سفيه ... تنطع فى مخالفة الفقيه

وقال أيضا:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل ... خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يخفى عليه يغيب
غفلنا لعمر الله حتى تداركت ... علينا ذنوب بعدهن ذنوب
فياليت أن الله يغفر ما مضى ... ويأذن فى توباتنا فنتوب

وقال أيضا:

ليت الكلاب لنا كانت مجاورة ... وليتنا لا نرى ممن نرى أحدا
إن الكلاب لتهدى فى مواطنها ... والناس ليس بهاد شرهم أبدا
ففز بنفسك واستأنس بوحدتها ... تبق سعيدا إذا ما كنت منفردا

وقال الربيع بن سليمان رحمه الله تعالى: رأيت أشهب بن عبد العزيز ساجدا. وهو يقول فى سجوده:

(اللهم أمت الشافعى، وإلا لذهب علم مالك بن أنس).

فسمع الشافعى ذلك فتبسم، وأنشأ يقول:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذى يبغى خلاف الذى مضى ... تهيأ لأخرى مثلها فكأن قد
وقد علموا لو ينفع العلم عندهم ... لئن مت ما الداعى علىّ بمخلد
كل العداوات قد ترجى إماتتها ... إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال رحمه الله تعالى:

وذو حسد يغتابنى حيث لا يرى ... مكانى ويثنى صالحا حيث أسمع
تورعت أن أغتابه من ورائه ... وما هو إذ يغتابنى متورع

وقال رضى الله عنه:

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا
وقد نهجو الزمان بغير جرم ... ولو نطق الزمان به هجانا
ديانتنا التصنع والتراثى ... فنحن به نخادع من يرانا
وليس الذئب ياكل لحم ذئب ... ويأكل بعضنا بعضا عيانا
لبسنا للتخادع مسك ضأن ... فويل للمعين إذا أتانا

وقال أيضا:

ساضرب فى طول البلاد وعرضها ... لأطلب علما أو أموت غريبا
فإن تلفت نفسى فلله درها ... وإن سلمت كان الرجوع قريبا

وقال أيضا:

احفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يلدغنّك إنه ثعبان
كم فى المقابر من قتيل لسانه ... قد كان هاب لقاءه الأقران

وكما كتب الشافعى رضى الله عنه الشعر فإنه كتب النثر أيضا فى إجادة وفصاحة نذكر منه هذه النماذج التى تدل على علو قدره فى اللغة وحسن بلاغته وفصاحته.

قال محمد بن عيسى الزاهد : بلغنى أن عبد الرحمن بن مهدى مات له ابن فجزع عليه جزعا شديدا حتى امتنع عن الطعام والشراب فبلغ ذلك الشافعى فكتب إليه : (بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد : فعز نفسك بما تعزى به غيرك . واستقبح من فعلك ما تستقبحه من فعل غيرك واعلم بأن أمعن المصائب فقدان سرور مع حرمان أجر فكيف إذا اجتمعا على اكتساب وزور وأقول :

إنى معزيك لا أنى على ثقة من الخلود ولكن سنة الدين
فما المعزى بباق بعد صاحبه ولا المعزى وإن عاشا إلى حين

وروى عنه أيضا قال :

العلم حر . وطالبه عبد فإن خدم العلم قبله العلم، وإن تجبر عليه العبد فالعلم أولى أن يتجبر عليه . ثم قال :

ما تم حلم ولا علم بلا أدب ولا التجاهل فى قوم حليمان
وما التجاهل إلا ثوب ذى دنس وليس يلبسه إلا سفيهان

وقال الربيع : كتب الشافعى إلى رجل :

(إن الأفئدة مزارع الألسن فازرع الكلمة الكريمة . فإنها إن لم تنبت كلها نبت بعضها وإن من المنطق ما هو أشد من الصخر وأنفذ من الإبر وأمرٌّ من الصبر وأدور من الرحى . وأحد من الأسنة – السيوف – وربما اغتفرت كثيرا على جوائب – حرارة – مخافة أن يكون أحر وأمر وأنكر) .

ومن أقواله أيضا :

(الكلام يقظة العقل والسكون نومه، فانظر كيف مراعاتك له فى يقظته ونومه) .

(العاقل من عَقَلَه . عَقْلُه عن كل مذموم) .

(لا يكمل المرء فى الدنيا إلا بخصال أربع : الديانة والصيانة والرزانة والأمانة) .

(للمروءة أربعة أركان : حسن الخلق والتواضع والسخاء والنسك) وهكذا

كان الإمام الشافعي رضى الله عنه من علماء العربية وآدابها وقد بذ أقرانه فى هذا الأمر وتلك فضيلة تضاف إلى فضائله الكثيرة والمتعددة والمتنوعة، واللغة العربية أداة أصلية من أدوات ومفاتيح كتاب الله وسنة نبيه ﷺ أى أن تعلم العربية أمر لازم لعلماء الأمة وعلى رأسهم الأئمة الأعلام.

فائـــدة :

لقد كان الإمام الشافعي رضى الله عنه على دراية وعلم واسع بعلوم وفنون: الطب والفلك والرمى والفراسة فقد كان له بهذه العلوم وتلك الفنون دراية تامة ومعرفة كاملة مما جعلنا نجزم فى يقين أن الإمام الشافعى رضى الله عنه كان موسوعة علمية متنوعة .

* * *

مسائل وألفاظ غريبة أجاب عنها الشافعى

لقد نقل عن الإمام الشافعى رضى الله عنه، أنهم سألوه عن بعض المسائل بالفاظ غريبة فأجاب عنها فى الحال، مما يدل على سعة علمه وقدرة تمكنه من اللغة العربية.

وقد ذكر بعضها الإمامان البيهقى والرازى فى المناقب ونقلها عنهما كثير من الذين كتبوا عنه. ونحن نذكر بعض هذه المسائل كما ذكرها الرازى [1] رحمه الله تعالى وهى:

فاحدها: قيل له: كم قرو أم فلاح؟ فأجاب على البديهة: من ابن ذكاء إلى أم شملة والمراد بالقرو: الوقت – وأم الفلاح: الفجر. وهو كنية الصلاة. والسؤال واقع عن مدة صلاة الفجر. وقول الشافعى: من ابن ذكاء: أى من وقت صلاة الصبح وهو كنيته. إلى أم شملة. وهى: كنية الشمس. أى إلى طلوع الشمس وهذا التفسير: منسوب إلى الخطابى.

(وهذا معناه: أن وقت صلاة الصبح: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس).

وثانيها: سئل: إذا نسى أبو دارس درسه قبل غيبة الغزالة بلحظة. ماذا يجب على أمة؟

فقال: عليها قضاء وظيفة العصرين.

قال السائل: بجناية جناها أبو دارس؟ قال الشافعى: لا بل كرامة استحقتها أمه.

وتفسيره: أن نقول: أبو دارس: كنية فرج النساء .. والدرس: الحيض.

يقال: نسى درسه (الرحم) أى ترك حيضه والغزالة: الشمس والمراد بأم دارس المرأة. إذ أم الشئ أصله.

---

(١) مناقب الإمام الشافعى ٢٢٠ – ٢٢٢.

وحاصل السؤال: أنه إذا كان قد انقطع حيض المرأة قبل غروب الشمس. ماذا يجب عليها من الصلوات؟ أجاب: بالعصرين. وهو: أنه يجب عليها الظهر والعصر.

فإن قيل: كيف سمى الظهر عصرا؟.

قلنا: العرب قد يسمون أحد الشيئين باسم الآخر تغليبا كقولهم: سيرة العمرين.

والمراد: أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما - وقال تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ [النساء: ١١].

والمراد: الأب والأم. وقال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠] والمراد: أبوه وخالته.

وفى الحديث: «البيعان كل واحد منهما بالخيار»(١).

وقال سلمان الفارسى - رضى الله عنه - (أحيوا ما بين العشاءين) أى المغرب والعشاء وقالت عائشة - رضى الله عنها - (لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ وما لنا طعام إلا الأسودان) أى التمر والماء.

وثالثها: سئل رضى الله عنه: فارس المعركة إذا قضي عليه أبو مضاء قبل أن يحمى الوطيس هل يستحق السهم؟ قال: نعم إذا أدرك الواقعة.

والوطيس: التنور. وقوله: حمى الوطيس. أى اشتد الحرب وأبو مضاء: كنية الفرس وقضى عليه. قتل.

وجواب الشافعى: معناه: إذا قتل على الفرس بعد قيام الحرب وحضور الواقعة.

ورابعها: سئل رضى الله عنه. هل تسمع شهادة الخالق؟.

قال: لا. ولا روايته، والخالق: الكاذب. قال الله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧].

---

(١) روى بمعناه أبو داود وروى الخمسة إلا ابن ماجه (البائع والمبتاع بالخيار حتى يتفرقا).

وخامسها: سئل: هل من وضوء على من خنقه الحنق. فاستشاط؟.

قال: لا يجب عليه الوضوء. والحنق: شدة الحقد. والاستشاطة: شدة الغضب.

وسادسها: سئل: إذا حضر ابن الذكاء والزوجان فى الحركة هل يضر صومهما؟

فقال: إن نزع من غير مكث لم يضر وقوله: حضر ابن الذكاء يعنى: طلوع الفجر من هذا الذى أوردناه قد بان لنا كيف كانت مقدرة الإمام الشافعى رضى الله عنه فى تحصيل العلم وقدرته على الاستنتاج وتمكنه من اللغة العربية. يقول أبو منصور الأزهرى (ولا شك أنه – الشافعى – كان من عظماء العلماء فى علوم العربية.

وهذا أبو الحسن: على بن القاسم الخوافى صاحب كتاب «مختصر العين فى اللغة والنحو» يفتخر فى أشعاره بالشافعى فيقول:

تلقيت دينى عن قريش وهاشم ... ومن بيته كان الحطيم وزمزما

ففزت بدين الهاشمى محمد ... وبالعروة الوثقى التى لن تفصما

أدين بدين الشافعى وهديه ... وأبرأ إلى الرحمن ممن تهجما

ولقد انتصر الإمام الزمخشرى صاحب الكشاف فى التفسير. للإمام الشافعى رضى الله عنه بالتقدم فى علم العربية. وعرض رأيه فى موضعين صحح فيها رأى الشافعى على رأى غيره وهما:

أولا: تفسير الشافعى لقوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا**﴾.

وثانيهما: قوله تعالى: ﴿**فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً**﴾ وقوله تعالى ﴿**فامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ**﴾ فليراجع ذلك فى تفسير الكشاف فى سورتى النساء والمائدة.

وكان محمدا بن بنت الشافعى يقول:

أقام الشافعى على تعلم العربية وأيام الناس عشرين سنة. وقال: ما به إلا الاستعانة على الفقه.

وكان الشافعى يقول: أصحاب العربية. جن وإنس. يبصرون ما لا يبصره غيرهم وكان أحمد بن حنبل يقول: الشافعى فيلسوف فى أربعة أشياء: (فى اللغة. وأيام الناس والمعانى. والفقه).

وروى ابن حجر العسقلانى: [1]: عن الربيع بن سليمان أنه كان يقول مرارا: لو رأيت الشافعى وحسن بيانه وفصاحته منه. ولو أنه ألف هذه الكتب على عربيته التى كان يتكلم بها معنا فى المناظرة لم يقدر على قراءة كتبه لفصاحته وغرائب لفظه غير أنه كان فى تأليفه يجتهد فى أن يوضح للعوام» رضى الله عنه ورحمه رحمة واسعة.

* * *

(١) توالى التأسيس ١٧٦.

obeikan.com